

دروس من فكر الشهيد مطهري - تلخيص وتحرير -

الإنسان الكامل

٢١



مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الإنسان الكامل

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الـكـتـاب: الإنسان الكامل

إعـــداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نـشـــر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعـة: جديدة ومصحّحة ٢٠١٢م - ١٤٣٣ هـ.

الإنسان الكامل

مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمّد وعلى آله الأخيار المنتجبين.

مهما تغيّرت الظروف فإنّ الفكر الأصيل يبقى على أصالته، ومهما تبدّلت الأحوال فإنّ الكلام المحكم بالدليل يبقى على إحكامه، فالأصالة والإحكام أساس الثبات والدوام، ومن هنا نجد الإمام الخمينيّ الراحل قُدِّسَ سِرُّهُ يوصي:

«...الطبقة المفكّرة والطلّاب الجامعيّين ألّا يَدَعوا قراءة كتب الأستاذ العزيز (الشهيد مرتضى مطهّري)، ولا يجعلوها تُنسى جرّاء الدسائس المبغضة للإسلام،...

فقد كان عالماً بالإسلام والقرآن الكريم والفنون

والمعـارف الإسلاميّة المختلفـة، فريداً من نوعه... وإنّ كتاباته وكلماته كلّها بلا أيّ استثناء سهلةٌ ومربِّية».

وكذلك نجد قائـد الثورة الإسلاميّة سماحة السيّد عليّ الخامنئـيّ دام ظله يصفـه بأنّـه: «**المؤسّس الفكـريّ لنظام الجمهوريّـة الإسلاميّـة،... وأنّ الخطّ الفكـريّ للأستاذ مطهّـري هو الخطّ الأساس للأفكار الإسلاميّة الأصيلة الّذي يقف في وجه الحركات المعادية...**

إنّ الخطّ الّذي يستطيع أن يحفظ الثورة من الناحية الفكريّـة هـو خـطّ الشهيد مطهـريّ يعني خـطّ الإسلام الأصيل غير الإلتقاطيّ...

وصيّتــي أن لا تَدَعـوا كلام هذا الشهيد الّذي هو كلام الساحة المعاصرة،... واجعلوا كتبه محور بحثكم وتبادل آرائكم وادرسوها ودرّسوها بشكل صحيح...».

هذه المحاضرة منتقاة من كتاب «**الإنسان الكامل**» للشهيد مرتضى المطهّري رحمه الله.

مركز نون للتأليف والترجمة

الإنسان الكامل

١- ما هي طرق معرفة الإنسان الكامل؟

٢- ما المراد من الإنسان الكامل؟

٣- ما الفرق بين كمال الإنسان وكمال الملائكة؟

٤- كيف يكون الألم معياراً للقيم الإنسانيّة؟

٥- أيّ الألمين ينبثق من الآخر: الألم للّه أم الألم لخلق اللّه؟

٦- لِمَ كان عليّ عليه السلام تجسيداً تامّاً للإنسان الكامل؟

تمهيد

إنّ معرفة الإنسان الكامل أو الإنسان النموذجيّ أو الأسمى واجبة علينا كمسلمين؛ لأنّه بحكم المثال والقدوة الّتي ينبغي أن يُقتدى بها، وليس بحثنا هذا مجرّد بحث علميّ بحت وإنّما له فائدة عمليّة كبيرة، إذ من خلاله نستطيع أن نشخّص الطريق الّذي أراد الإسلامُ من الإنسان والأمّة أن يسلُكاه للوصول إلى الإنسان الكامل الّذي يريده الإسلام.

طرق معرفة الإنسان الكامل

ولِمعرفة الإنسان الكامل يوجد طريقان:

الأوّل: الرجوع إلى القرآن والسنّة النبويّة:

لِنرى الأوصاف الّتي ذكرها للإنسان الكامل، ولو بتعبير المسلم أو المؤمن الكامل، إذ المراد منهما هو الإنسان الّذي يصل إلى الكمال على ضوء تعاليم الإسلام. وفي

المقام يوجد الكثير من النّصوص الّتي يمكن الاستفادة منها، وسنشير إلى بعضها إن شاء اللّه.

الثاني: البحث عن نماذج كاملة للإنسانيّة:

قد وجِدت على ضوء تعاليم الإسلام والقرآن، فنقوم بدراسة شخصيّاتها بكلّ أبعادها.

ويُعتبرُ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ووصيّه الإمام عليّ عليه السلام نموذجين بارزين للإنسان الكامل. ودراسة شخصيّة الإنسان الكامل لا تعني دراسة هويّته فقط، كمعرفة نسبه وتاريخ ولادته، وإنّما تعني ما هو أعمق من ذلك بكثير، تعني التعرّف على حقيقة شخصيّته لنستطيع من خلال ذلك تشخيص القدوة، ونكون بالتالي قادرين على الاقتداء بها.

وبهذا الاقتداء نكون مستحقّين للاتصاف بأنّنا أتباع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وشيعة عليّ عليه السلام . فإنّ الّذين يشايعون عليّاً عليه السلام هم الّذين يسيرون على دربه قولاً وعملاً لا قولاً فقط.

معنى كلمة الإنسان الكامل

لعلّ الكثير لا يجد صعوبة في فهم هذه الكلمة، ولكن

بالتمعّن بها نجد أنّها تحتاج إلى توضيح وشرحٍ أكثر.

يوجد في اللغة العربيّة كلمتان متقاربتان في المعنى وليستا بمعنى واحد، هما «**الكمال والتمام**». ويقابلهما كلمة واحدة وهي «**النقصان**»، تُستَعمل تارةً ضدّ الكمال وأخرى ضدّ التمام. فيُقال تارةً «**هذا كامل وذاك ناقص**»، وأخرى «**هذا تامّ وذاك ناقص**»، وقد ذكرتا معاً في القرآن الكريم في آية واحدة، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[1] ولم يقل «**اليوم أتممت لكم دينكم**» أو «**وأكملت عليكم نعمتي**» ولو ذكر ذلك لما صحّ لغة فما هو الفرق بينهما؟

أمّا «**التمام**» فيُراد به التعبير عن تحقّق جميع الأمور اللاّزمة لصيرورة الشيء غير ناقص من جهة ماهيّته وحقيقته، فلو لم يتحقّق بعض هذه الأمور وُصِف الشيء بالناقص أي أنّه لم يوجد كلّه. فمثلاً يتألّف المسجد من قاعة للصلاة وجدرانٍ وسقف و... فإذا وُجدت جميع هذه الأشياء أمكن القول بأنّ بناء المسجد قد «**تمّ**» وإلّا فإنّ البناء يبقى ناقصاً.

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

وأمّا «**الكمال**» فيُراد به التعبير عن الدّرجات الّتي يمكن أن يصل إليها الشيء بعد تمامه، ولذلك فلو لم يكن الشيء كاملاً لم يعنِ ذلك أنّه غير تامّ، بل هو تامّ. وعندما يُقال أنّ فلاناً قد كمُل عقله فلا يعني أنّ عقله كان ناقصاً والآن أصبح تامّاً، بل يعني أنّ عقله تامّ إلّا أنّه قد ارتقى في سلّم الكمال.

وعليه، فالإنسان الكامل هو الإنسان الّذي وصل إلى أرقى درجات الإنسانيّة، ذلك الحدُّ الّذي لا يكون فوقه إنسان.

الكمال والنقصان في الصفات الأخلاقيّة

يوجَد إنسان «**سالم**» تامّ وآخر «**معيوب**» ناقص، وهذان المصطلحان يُنسَبان لجنبةٍ في كيان الإنسان وهي الجسم.

فالإنسان المعيوب هو المصاب بإحدى الآفات كالعمى أو الشّلل و... وهذه جميعاً إنّما تصيب الجسم لا النّفس، ولذلك فإنّها لا تُنقِص من شخصيّة الإنسانِ شيئاً. فمثلاً طه حسين الضرير أو سقراط الفيلسوف المعروف كان من أقبح الناس وجهاً ومع ذلك لم يجدْ أحد في قبحه نقصاً في إنسانيّته وشخصيّته.

ويُستنتج من ذلك أنّ للإنسان بُعدَين: جسميّ وروحيّ. وهما وإن كانا معاً إلّا أنّ أحدهما غير الآخر. فقد يكون الإنسان سليماً من ناحية الروح إلّا أنّه مريض من الناحية الجسديّة. وقد يكون سليماً من الناحية الجسديّة إلّا أنّه مريض من الناحية النفسانيّة كالمتكبّر والحسود وغيرها من الرذائل الأخلاقيّة الّتي لا علاج لها بين العقاقير.

إنّ الحسود عندما يرى نعمةً عند الآخرين يتمنّى أن تزول عنهم بكلّ جوارحه بغضّ النظر عن إرادتها لنفسه، بل يصل الأمرُ به أحياناً أن يتمنّى لنفسه أن يصاب بمائة مصيبةٍ لو أُصيب من يحسده بخمسين.

إنّ الحسد مرض يصيب نفس الإنسان، وليس للإنسان سبيل لدفعه إلّا بتزكية نفسه، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

المنهج القرآنيّ في بناء الإنسان الكامل

هذا هو المنهج القرآنيّ في بناء الإنسان الكامل،

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩ـ ١٠.

وأوّل خطوةٍ فيه هي تزكية النفس وتنميتها وتطهيرها مِن الأمراض الباطنية والعُقد والظلمات أي صيرورة الإنسان إنساناً حقيقةً يلائم مظهره الخارجيّ واقعه الباطنيّ لا أن يكون إنساناً من خارج ومسخاً من داخل.

إنّ مادّة «مَسَخَ» وردت في العديد من آيات القرآن الكريم الّتي تحدّثت عن أقوام مسخوا إلى قردةٍ وخنازير بسبب طغيانهم وكفرهم وصدّهم لأنبياء اللّه تعالى.

ولو فرضنا أنّ الإنسان لا يمسخ جسديّاً فإنّه مما لا شكّ فيه أنه يُمسَخ روحيّاً ونفسيّاً فيتحوّل إلى حيوانٍ بل إلى ما هو أدون منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[1].

المسخ الروحيّ

إنّ شخصيّة الإنسان تتجلّى في صفاته الأخلاقيّة

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

والنفسيّة، فإذا اعتدلت هذه الصفات كانت شخصيّة الإنسان متلائمةً مع مظهره الإنسانيّ، وأمّا إذا انحدرت وخرجت عن طور الإنسانيّة واتسمت بصفات حيوانٍ مفترس، لم يعد صاحب هذه الصفات إنساناً وإنّما يصبح حيواناً مفترساً، أي إنّ شخصيّته قد مُسِخَت وأصبحت في الباطن والحقيقة بهيمةً. وهذا هو الإنسان الناقص في قبال الإنسان الكامل.

جاء في الرواية أنّ رجلاً كان بصحبة الإمام زين العابدين عليه السلام أيّام الحجّ، وفي صحراء عرفات وأمام مشهد الألوف من الحجيج قال الرجلُ للإمام عليه السلام: «**ما أكثر الحجيج**»، فأجابه الإمام عليه السلام: «**ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج**»[1]. وعندما نظر الرجل ثانيةً إلى تلك الجموع شاهد الصحراء مملوءةً بالحيوانات وبينهم بعض الناس يتحرّكون. لقد فتح الإمام عليه السلام عين هذا الرجل على باطن الحقيقة. وفي زماننا هذا يوجد العديد من الأفراد ممَّن يستطيعون أنّ يدركوا الإنسان على حقيقته

(١) المحدث النوري، مستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٥٧، سفينة البحار، ج ٢، ص ٧١، إثبات الهداة، ج ٥، ص ٣٩.

وأن يروا أنّ كثيراً من الناس لا تختلف أرواحهم عن أرواح ذوات الأربع.

يذكر العلماء أنّ صنفاً واحداً من الناس سيحشر على هيئة إنسان، وأمّا البقيّة فقسم يُحشَر على هيئة العقارب، وقسم يُحشَر على هيئة الأفاعي، وقسم يُحشَر على هيئة القرود وهكذا. لماذا؟

لأنّ من لا همّ له سوى إيذاء الناس ولسعهم هو في حقيقته عقرب، ومن لا همّ له سوى النهش في أعراض الناس هو في حقيقته كلب، ومن لا همّ له سوى التلاعب بالناس هو في حقيقته قرد. إنّ صفات الإنسان وخصاله في الدنيا هي الّتي تحدِّدُ هيئته في الآخرة.

تفاوت الكمال بين المخلوقات

تارةً ينسب الكمال إلى الإنسان وأخرى إلى المَلَك وثالثةً إلى الجنّ ورابعةً إلى الحيوان. والكمال في كلّ واحدٍ من الأنواع المتقدّمة يختلف عن الكمالِ في الآخر؛ فالملائكة موجودات علويّة مخلوقة من العقل المحض وهم مبرّؤون

من أيّ جنبةٍ أرضيّةٍ وشهوانيّة، بخلاف الحيوانات غير الإنسان فإنّها موجوداتٌ أرضيّة صرفة. وأمّا الإنسان فهو موجود مركّب من جنبتين علويّة ملائكيّة وسفليّة حيوانيّة.

١٧ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهم السلام: إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركَّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**»[(١)].

فالإنسان يختلف عن غيره من المخلوقات نتيجةً لاختلاف ذاته في تركيبها عن المخلوقات الأخرى ولهذا يكون الكمال المنتسب إليه مختلفاً عن الكمال المنتسب إليها. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٢)].

(١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج ١٥، كتاب الجهاد، الباب ٩، من أبواب جهاد النفس، الحديث الثاني.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٢-٣.

أي إنّ اللّه خلق الإنسان من نطفةٍ تحتوي على الكثير من القابليّات تجعله مؤهّلاً لمواجهة الامتحان والبلاء وبالتالي الحصول على الثواب أو العقاب ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. ونتيجةً لهذه الخصائص كان الإنسان الكامل مختلفاً عن الملك الكامل، وكمال الإنسان يكمن في إقامته التوازن بين جميع قابليّاته واستعداداته، لا أن ينمّي بعضها ويهمل الأخرى كالجسم المكوّن من رأسٍ ويدين ورجلين و... ولا ينمو فيه سوى عضو واحد، إنّ هكذا جسماً يقال عنه أنّه غير متجانس. أمّا إذا نمت الصفات والقابليّات بنحوٍ متجانسٍ فإنّ الكمال سيتحقّق ويرتقي إلى أن يصبح الإنسان إماماً، كما حكاه تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

لقد واجه إبراهيم عليه السلام اختباراتٍ وابتلاءاتٍ عظيمة: منها إلقاؤه في النار ومنها أمره بذبح ابنه إلّا أنّه اجتازها من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

خلال التسليم المطلق للأمر الإلهيّ ولذا كان الثواب: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]. ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وبهذا يتّضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]، ومعنى الوسام الإلهيّ الّذي أعطي له ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[4]. لقد أصبح إنساناً كاملاً وعلى الآخرين أن يتّخذوه قدوةً ويحتذوا حذوه إذا أرادوا الوصول إلى الكمال.

الإفراط في التمسّك بإحدى القيم ومبادئه

يركِّز القرآن الكريم على ضرورة العمل على إنماء جميع القيم في كيان الإنسان بنحوٍ متوازنٍ لا يؤدّي إلى إلغاء بعضها لحساب الآخر. يقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الصافّات، الآيتان: ١٠٤ـ١٠٥.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[١]. ويقول في موضع آخر: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

ففي هاتين الآيتين المباركتين وغيرهما من الآيات نجده تعالى يبيّن سمات المجتمع الإسلاميّ من خلال أفراده، فهم الّذين يبتغون فضل الله ويتقدّمون يوماً بعد يوم. هم التائبون العابدون وهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، وهم المستغفرون بالأسحار وهم الصابرون الصادقون. فهؤلاء قد نمت فيهم القيم بشكلٍ متوازن بحيث لم يمنع نمو بعضها من نمو بعضها الآخر. ومن هذا البيان ندخل لتسليط الضوء على الانحراف الّذي قد يصيب المجتمع والأفراد باسم التنوّر، كذاك الانحراف الّذي حصل في عهد عمر.

انحراف التنوّر

من المعلوم أنّ عمر بن الخطاب قام بحذف «حيّ

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

على خير العمل» من الأذان، ولعلّك تتساءل عمّا دفعه لذلك؟ والجواب أنّه حسبَ ذلك تنوّراً فكريّاً، فقد كان عهده عهد الفتوحات وقد استطاع المسلمون أن يحقّقوا انتصاراتٍ عظيمة على الرغم من قلّة عددهم في مقابل الإمبراطوريّتين الرومانيّة والفارسيّة، وفي تلك الظروف رأى «**عمر**» أنّه من المصلحة حذف «**حيّ على خير العمل**» من الأذان، لأنّها تدعو المسلم للتوجّه نحو أفضل الأعمال وهي الصلاة، وهذا سيفسد نفسيّة المقاتلين فإنّهم سيقعون في حيرةٍ من أمرهم أيذهبون إلى الصلاة أم إلى الجهاد؟ بالطبع سيذهبون إلى الصلاة فإنّها أفضل الأعمال ولازم ذلك إضعاف قوّة المسلمين. إذاً فلتحذف «**حيّ على خير العمل**» وليتمّ إبدالها بـ«**الصلاة خير من النوم**» باسم التنوّر.

إلّا أنّه قد فات عمر أنّ المسلمين إنّما استطاعوا هزم الإمبراطوريّتين الرومانيّة والفارسيّة لا بقوّة السلاح وإنّما بقوّة الإيمان المستمدّة من الصلاة، ومن المناجاة مع الخالق واستشعار عظمته وأنّه سبحانه أكبر من كلّ شيء،

أي المستمدّة من «**حيّ على خير العمل**».

لقد جانَبَ «**عمر**» الصواب في عمله ولم يلتفت إلى أنّ من كان الجهادُ فرضاً واجباً عليه فإنّه لن يتركه بل سيجده شرطاً لقبول صلاته، ولن تكون صلاته إسلاميّةً إلّا بتحقيقه.

هذا هو منطق الإسلام، صحيح أنّ العبادة هي أعلى القيم، إلّا أنّ لها شروطاً تؤدّي إلى نموّ سائر القيم معها، يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1].

انحراف العبادة

أولى الإسلامُ العبادةَ أهميّةً كبرى، إلّا أنّ هذه العبادة قد يحصرها بعض بالذهاب إلى المسجد وقراءة القرآن فحسب، من دون أن تمتدّ لتشمل جميع نشاطات الإنسان كالتكسّب للنفس والعيال، وخدمة المجتمع والجهاد في سبيل الله. وهذا انحراف يصيب العبادة.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

«روي أنّ جماعةً من الصحابة حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أمّ سلمة رسول الله ﷺ فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟! إنّي آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي، وأنزل الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [(١)] **فقالوا يا رسول الله، إنّا قد حلفنا على ذلك؟ فأنزل الله:** ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ (...) وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [(٢)]»[(٣)].

وهكذا بالنسبة للقيم الأخرى كالزهد والجهاد والعدالة والحريّة وخدمة الناس وغيرها فإنّها قد تصاب بانحراف يؤدّي إلى طغيانها على بقيّة القيم ممّا يؤدّي إلى اختلال

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٧ـ ٨٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٣) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة: ج ١٤، كتاب النكاح الباب ٢ من أبواب مقدمات النكاح، ص ٩، ح ٩.

المجتمع، ولهذا فإذا أردنا إحياء قيمة خدمة الناس مثلاً فلا ينبغي أن يكون ذلك على حساب إكرام عباد اللّٰه الصالحين وإلّا فإنّ هذه الخدمة ستكون كخدمة أيّ حيوانٍ آخر غير الإنسان.

هذه قيم والإنسان الكامل ليس هو العابد فقط أو الزاهد فقط أو المجاهد فقط؛ إنّه ذاك الّذي تربَّت فيه كلّ هذه القيم ونمت إلى حدودها العليا في انسجام والتئام.

معيار القيم الإنسانيّة [1]

يُعتَبر الإحساس بالألم وبحسب ما ورد في النصوص الإسلاميّة معياراً للقيم الإنسانيّة، وهذا ما يحتاج إلى بعض التوضيح:

عند الحديث عن الألم فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو كيفيّة علاجه لا جعله معياراً للقيم، إلّا أن هذا الاستغراب سيزول إذا علمنا منشأ الألم.

(١) على الرغم من الاختلاف الكبير بين الرؤية الروحيّة والرؤية الماديّة حول ماهيّة الإنسان. بالروح أم بالجسد، إلّا أنّهما تتّفقان معاً على وجود جملة من الأمور المعنويّة الّتي تهب للإنسان القيمة، والّتي إن جُرِّد الإنسان منها ارتفع الفرقُ بينه وبين الحيوان. ويصطلح على هذه الأمور بـ«القيم الإنسانيّة».

من الأمور الّتي ينبغي الالتفات إليها أنّ الألم حتّى الآلام العضويّة ينبِّه على وجود خللٍ ما في كيان المتألّم. ولولا هذا التنبيه لما أدرك المتألّم وجود الخلل ولما بادر إلى علاجه. نستنتج من ذلك أنّ الألم نعمة وإحساس وتيقّظ. فالإنسان من خلال الألم يدرك وجود نقصٍ عنده، فيندفع للبحث عن علاجه وعمّا يرفعه.

إنّ إحساس الإنسان بجهله وقصوره يولّد لديه آلاماً تدفعه نحو البحث عمّا يرفعهما. والقائل بأنّ العقل والذكاء عدوّان له هو فاقد للإحساس بالتعاسة والشقاء الناتجين من الجهل. ومن حاله كذلك فهو تعيس وسيّء الحظّ، حاله كحال المصاب بمرضٍ في جسمه لا يؤلمه حتّى يتطوّر ويصبح ميئوس العلاج.

وقد تسأل عن ماهيّة الألم الّذي يُعتَبر معياراً للقيم الإنسانيّة، فهل هو ألم الصداع أم ألم الظهر أم أيّ نوع من الآلام العضوية؟

والجواب: إنّه ليس من جنس هذه الآلام فإنّ الحيوان، يشترك مع الإنسان فيها، بل هو ألم من نوعٍ آخر إنّه «**ألم**

البحث عن الله».

ومنشأ هذا الألم، إنّ الإنسان وكما تُعبِّر النصوص الإسلاميّة نفخة من روح اللّه نزلت إلى الدنيا. ولذلك فإنّه لا ينسجم تماماً معها بل يحسّ بالغربة. إنّ كُلّ ما في الدنيا زائل وفانٍ وليس جديراً بالتعلُّق به. إنّه الإنسان يحنّ لخالقه ولذلك فإنّه يبحث عنه ليعبده ويبثُّه شجونه ويتقرَّب إليه.

ومن أجمل الأمثلة الّتي يذكرها العرفاء لتقريب هذه الفكرة ما يذكره مولويّ في مطلع كتابه مثنوي، فإنه يشبِّه الإنسان بالناي الّذي اقتُطِع من مزرعة القصب ولذلك فإنّه دائم الأنين من ألم الفراق. إنّه ينوح لأنّه قد فُصِل عن أصله.

هذا هو الألم العرفانيّ؛ إنّ الإنسان يتألّم من فراق اللّه ولذلك فإنّه يناجيه طالباً وصاله. يقول الإمام عليّ عليه السلام في حديثٍ له مع كميل بن زياد: «**اللّهمّ بلى! لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجَّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا خائفاً مغموراً**[1] (...) **أولئك والله الأقلّون عدداً، والأعظمون**

(١) غمره الظلم حتّى غطّاه فهو لا يظهر.

عند اللّه قدراً، يحفظ اللّه بهم حججه وبيّناته، حتّى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى، أولئك خلفاء اللّه في أرضه، والدعاة إلى دينه. آهٍ آهٍ شوقاً إلى رؤيتهم!»[1].

فهؤلاء كما يصفهم الأمير عليه السلام يتألّمون بسبب البعد عن اللّه والشوق إليه، فما لم يصل الإنسان إلى اللّه فلن تفارقه حالة الاضطراب، ولذا فإن الذكّر يكون له دواءً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[2].

الإمام عليّ عليه السلام كان كذلك، كان يغيب عن كلّ ما حوله إذا دخل في الصلاة، مندمجاً بكلّه في معشوقه حتّى أنّهم إذا أرادوا اقتلاع السهم من جسمه، كانوا يستخرجونه حال الصلاة. إنّ هكذا ألماً هو خير من ملك الدنيا.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

الألم لخلق اللّٰه

ترى بعض المدارس أنّ الألم الموجود عند الإنسان مرجعه إلى الألم لخلق اللّٰه ولا معنى للقول بألم الإنسان للّٰه. إلّا أنّ هذا الكلام غير صحيح وسنستعين بما يذكره العرفاء لبيان أنّ الألم من أجل العباد لا معنى له ما لم يكن منبثقاً من الألم للّٰه.

الأسفار الأربعة

يرى العرفاء أنّ مسيرة الإنسان نحو الكمال تنقسم إلى أسفارٍ أربعَة:

١- السفر من الخلق إلى الحقّ.

٢- السفر بالحقّ في الحقّ (أي معرفة اللّٰه).

٣- السفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ أي مع اللّٰه.

٤- السفر بالحقّ في الخلق، أي سير الإنسان مع اللّٰه بين خلق اللّٰه.

ويُظهر هذا التقسيم أنّ أوّل الخطوات الّتي ينبغي على الإنسان القيام بها هي السفر إلى اللّٰه. وما لم يعرف

الإنسان ربَّه ويتقرَّب إليه فلن يكون قادراً على إنقاذ الخلق وهدايتهم. وبعبارةٍ مختصرةٍ ما لم يستطع الإنسان تخليص نفسه فلن يكون قادراً على توفير الخلاص للآخرين، وما لم يتغلّب على نفسه الأمّارة بالسوء، والعبوديّة للهوى فلن يكون قادراً على إزالة الأغلال عن أعناق الآخرين.

من هذا المنظور فالإنسان المسلم هو الّذي يحمل ألم الله، ومن خلاله يحمل آلام الآخرين.

كيف عبَّر القرآن الكريم عن الألم للخلق؟

يقول تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[1]، ويقول في موضع آخر: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وما أجمله من تعبير قرآنيّ يصّور فيه حالة الألم عند رسول الله ﷺ كيف كان ﷺ يحمل ألم خلق الله، فيؤلمه ما يؤلمهم ويسوؤه ما يسوؤهم، إلّا أنّ كلّ ذلك كان بسبب

(١) سورة طه، الآيات: ١ـ٢ـ٣.

(٢) سورة التوبة: الآية: ١٢٨.

حرصه على هدايتهم.

كيف عبّر الإمام عليّ عليه السلام عن الألم للخلق؟

نقرأ كتاباً لأمير المؤمنين عليه السلام يخاطب فيه وَاليَه على البصرة عثمان بن حنيف وقد بلغه عليه السلام أنّه حضر وليمةً لأحد الأغنياء دُعيَ إليها وجهاء القوم دون فقراءهم.

يقول عليه السلام: «**أمّا بعد، يا ابن حنيف: فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية البصرة دعاك إلى مأدبةٍ فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتُنقَل إليك الجفان[1] وما ظننت أنّك تجيب إلى طعامِ قوم عائلهم[2] مجفوّ[3]، وغنيّهم مدعوّ (...) إلا وإنّ لكلّ مأمومٍ إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطُمْريه[4]، ومن طُعمه[5] بقرصيه[6] (...) ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا**

(١) جمع جفنة وهي القصعة.

(٢) محتاجهم.

(٣) مطرود.

(٤) الطمر هو الثوب البالي، والمراد من الطمرين الرداء والإزار.

(٥) ما يطعمه ويفطر عليه.

(٦) تثنية قرص وهو الرغيف.

القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي[1] إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع أَوَأَبيتُ مبطاناً وحولي بطون غرثى[2] وأكباد حرّى[3]؟! أَو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنةٍ

وحولك أكباد تحنّ إلى القِدِّ[4]...»[5].

إنّ الأمير عليه السلام يتألَّم لخلق اللّٰه من شدِّة شوقه إليه. وهذا الألم لذيذ لأنّه يُشعر الإنسان بالصفاء والراحة، كالحزن الّذي يصيب الإنسان عند استماعه لمصيبة سيّد الشهداء عليه السلام.

إنّ الروح الّتي تتألّم للخلق لكونها تتألّم للّٰه، روح عظيمة، لقد كبرت حتّى أضحت روحاً لجميع الأبدان: «نظر عليّ

(١) شدة الحرص.

(٢) جائعة.

(٣) عطشى.

(٤) قطعةٌ من جلد غير مدبوغ.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب ٤٥.

عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى امرأة على كتفها قربة ماء، فأخذ منها القربة فحملها إلى موضعها، وسألها عن حالها فقالت: بعث عليّ بن أبي طالب صاحبي إلى بعض الثغور فقتل، وترك عليّ صبيانا يتامى، وليس عندي شيء، فقد ألجأتني الضرورة إلى خدمة الناس، فانصرف عَلَيْهِ السَّلَامُ وبات ليلته قلقاً، فلمّا أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام، فقال بعضهم: أعطني أحمله عنك، فقال: **من يحمل وزري عنّي يوم القيامة؟!**

فأتى وقرع الباب، فقالت: من هذا؟ قال: **أنا ذلك العبد الّذي حمل معك القربة، فافتحي فإنّ معي شيئاً للصبيان،** فقالت: رضي اللّه عنك وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب، فدخل وقال: **إنّي أحببت اكتساب الثواب، فاختاري بين أن تعجني وتخبزي وبين أن تعلّلي الصبيان لأخبز أنا**، فقالت: أنا بالخبز أبصر وعليه أقدر، ولكن شأنك والصبيان، فعلّلهم حتّى أفرغ من الخبز، قال: فعمدَت إلى الدقيق فعجنته، وعمد عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اللحم فطبخه، وجعل يلقم الصبيان من اللحم والتمر وغيره، فكلّما ناول الصبيان من ذلك شيئاً قال له: **يا بنيّ اجعل عليّ بن أبي**

طالب في حلّ ممّا أمر في أمرك، فلمّا اختمر العجين قالت: يا عبد الله أسجر التنّور فبادر لسجره فلمّا أشعله ولفح في وجهه جعل يقول: **ذق يا عليّ هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى، فرأته امرأة تعرفه** فقالت: ويحكِ هذا أمير المؤمنين، قال: فبادرت المرأة وهي تقول: واحيائِي منك يا أمير المؤمنين، فقال: **بل واحيائي منك يا أمة الله فيما قصّرت في أمرك»**(١).

الإمام عليّ عليه السلام الإنسان الكامل

نتّجه إلى عليّ عليه السلام مرّةً أخرى لنأخذ منه الدرس تلو الدرس. وإنّنا حينما نقرأه لنتحيّر في أمره فمرّةً نخاله رجل حربٍ لا همّ له سوى قرع السيوف، وتارةً نجده صوفيّاً لا شغل له سوى مناجاة معشوقه. وإليك نموذجان يحكيان صدق ما نقول:

النموذج الأوّل: في أوّل تماسٍ بين جيش عليّ عليه السلام وجيش معاوية، يوعز معاوية إلى جيشه بقطع الماء عن جيش عليّ عليه السلام قبل أن يصلوا إليه. فيحاول الإمام عليه السلام حلّ الأمر في البدء عن طريق التفاوض إلّا أنّ معاوية يبقى

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ١٤، ص ٥٢.

مصرّاً على فعله، فيقف الإمام عليه السلام أمام جيشه ويخاطبه بكلماتٍ تؤثّر أكثر من ألف طبلٍ وألف بوق وألف لحنٍ عسكريّ: «**قد استطعموكم القتال فأقِرّوا على مذلّةٍ، وتأخير محلّةٍ، أو رووا السيوف من الدماء ترووا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين...**»[١].

فيندفع جيش عليّ عليه السلام ويستولي على شريعة الماء، ويطرد جيش معاوية. وعندما يطلب معاوية الماء لجيشه يرفض جند عليّ عليه السلام إيصال الماء إليهم ولكنّ عليّاً عليه السلام يأبى ذلك فليس هذا من شيمه ولا منسجماً مع مروءته.

النموذج الثاني: عندما كان ينتهي عليّ من قضاء حوائج الناس، كان يختلي بنفسه مع اللّه فيبثّه شجواه ودعاءه «**اللّهمّ إنّك أنس**[٢] **الآنِسين لأوليائك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكّلين عليك، تشاهدهم في سرائراهم متطلّع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم،**

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

(٢) أشدّ أنساً.

فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة[1]...»[2].

إنّ هذا الدعاء وغيره من أدعيته عليه السلام تحكي عن علاقة عبد عاشقٍ بإلهٍ معشوق، فلا جنّة ولا نار في المقام وإنّما طلب للقرب والوصال.

نهج البلاغة مرآة عليّ عليه السلام

يضمّ نهج البلاغة بين دفتيه ٢٤١ خطبةً من خطب الإمام عليّ عليه السلام. وعندما نطالع هذا الكتاب نلحظ العارف تارةً والبطل الشجاع ورائد الحريّة تارةً أخرى، والزاهد العابد ثالثةً. وبما أنّ اللسان مرآة النفس نستطيع أن ندرك عظمة عليّ عليه السلام في كلّ منقبة من مناقبه.

نقرأ عليّاً عليه السلام وهو يصف العرفاء وهو سيّدهم بقوله: **«... هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره[3] المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها**

(١) الملهوف هو المضطر يستغيث ويتحسّر.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٧.

(٣) عدوّه وعراً وخشناً.

معلّقة بالمحلّ الأعلى...»[١].

إلّا أنّ هذه الروحيّة الّتي يعيشها عليّ عليه السلام لا تصنع منه إنساناً عبوساً مقطَّب الوجه، بل هو صاحب الوجه البشوش والصحبة الحسنة لدرجة أنّ أعداءه عندما لم يجدوا فيه ما يشينه عابوا عليه بشاشته لظنّهم أنّ الخلافة تتطلّب الوجه العبوس والمنطق الحادّ.

يقول عليه السلام: **«عجباً لابن النابغة**[٢] **يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابة، وأنّي امرؤ تلعابة**[٣]**: أعافس وأمارس**[٤]**! لقد قال باطلاً ونطق إثماً»**[٥].

لقد اجتمعت في عليّ عليه السلام صفات يندر اجتماعها معاً إلّا في شخصٍ مثله. فهو الحاكم الحكيم، وهو الحليم الشجاع، وهو العابد الزاهد، وهو الفقير الجواد.

يقول صفيّ الدِّين الحلّي في وصفه عليه السلام:

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.
(٢) يقصد به عمرو بن العاص.
(٣) كثير اللعب.
(٤) أعافس أي أعالج الناس وأضاربهم مزاحاً والممارسة كالمعافسة.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٨٤.

جُـمـعـت فــي صـفـاتـك الأضــــدادُ

ولـــهـــذا عــــزّت لـــك الأنـــــــدادُ

زاهــــــدٌ حــاكــم حـلـيـم شـجـاع

نــاســـك فـــاتـــك فـقـيـر جـــواد

الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وشوقه إلى الله

في الليلة التاسعة عشر من شهر رمضان، ليلة اللقاء، يرى الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المنام، فيشكو إليه ما هو فيه من التذلّل والأذى من أمّته: «**فقال لي: ادع عليهم، فقلت: اللهمّ أبدلهم بي شرّاً وأبدلني بهم خيراً منهم، فقال لي: قد استجاب الله دعاءك، سينقلك إلينا بعد ثلاث...**». كلّ شيءٍ في تلك الليلة كان له طعم خاصّ ووقع خاصّ. لم يكن عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقبل أن يمنعه أيّ شيءٍ عن الذهاب إلى قضائه، وإذا بمنادٍ ينادي «**تهدّمت والله أركان الهدى وانطمست والله أعلام التقى وانفصمت العروة الوثقى، قُتِل ابن عم المصطفى قتل الوصيّ المجتبى قتل عليّ المرتضى قتله أشقى الأشقياء**»[(١)].

(١) منتهى الأمال، ج ١، ص ٣٣٨.

الخلاصة

هناك طريقان لمعرفة الإنسان الكامل:

الأوّل: بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنّة النبويّة.

الثاني: دراسة شخصيّات تعتبر نماذج للإنسان الكامل.

ويوجد فرق بين التمام والكمال، والإنسان الكامل هو الّذي وصل إلى أرقى درجات الإنسانيّة. وتُعتبر تزكية النفس الخطوة الأولى في بناء الإنسان الكامل في المنهج القرآني.

والكمال يتفاوت بين مخلوق وآخر، وكمال الإنسان يتجسَّد في إقامته التوازن بين جميع قابليّاته واستعداداته، والمتأمّل قليلاً في صفات الإمام عليّ عليه السلام يقطع أنّه هو الإنسان الكامل.

كما أنّ الإحساس بالألم هو معيار القيم الإنسانيّة. والألم لخلق الله منبثق عن الألم لله ولا معنى للقول بأنّه هو معيار القيم الإنسانيّة.

وتظهر الكثير من المساوئ نتيجة التمسّك بإحدى القيم وإهمال الأخرى، سواء على صعيد الفرد أم على صعيد المجتمع.

والحمد لله ربّ العالمين

الفهرس